المعري في نظر المستشرقين

أيها المحفل الكريم

ان المجمعَ العلميَّ العربيَّ قد اكسبني شرفا عظيما بدعوته الكريمة لأخاطب هذا الجمعَ الراقيَ في دمشق او هذا المجمعَ العلميَّ الكبير لان هذه المدينة القديمةَ هي مجمعُ العلم العربي حقيقةً كما كانت بأيام الشاعر الكبير الذي نُحيي ذكرَه اليوم . واذا لم يكن لي أملٌ في أن أزيدَ على علم العلماء أو أضيف الى معرفة العارفين فاني أرجو ان يكون باستطاعتي ان أجيء بما يساعدُ على فهم هذه الشخصيةِ المعقدة .

أبو العلاء بنظر مستشرق

وكان يجوز أن أتناولَ هذا الموضوعَ من جهتين أولاً من وجهة نظرِ المستشرقين كمرجليوث ونيكلسون وفون كريمر وآخرين من الدارسين والباحثين في الغرب . أو ثانيا من وجهة نظري الخاص . أما المسلك الأول فالأدباء في الشرق مُنذُ سنين كثيرةٍ قد عرفوا دروس هؤلاء المستشرقين والاستاذ طه حسين تكلم فيها بكتابه المشهور . لذلك أستغني عن ذكرها هنا . اما المسلك الثاني فله فائدةٌ واحدةٌ وواحدة فقط وهي أن تكونَ هذه الكلمةُ محاولةً مخلصةً لتقدير عبقريةِ أبي العلاء وأهميته لهذا القرن ولا مناص للمستشرق حين يدرس كُتبَ المعري من أن يتعرض للعناءِ والجهدِ لبعده عن اسلوب هذا الأديب الغريب وتعمقه الشديد : لأنه رمز الى كل فنون العلم من عادات الجاهلية وأخلاقها الى مجادلات الفلاسفة في عصرهِ ويجب على الباحثين ان يكونَ لهم علم بالفقه والتوحيد والفرائض والنحو والعروض والتأريخ . فاني بعد ماجتهدتُ غاية الاجتهاد شعرتُ بقصوري الذي أعتذر عنه : ومع ذلك فمن حُسن الحظ انَّ كلَّ شاعر كبير لم يكن يَقصر شعرَه على امتهِ وجيله فقط بل كان يكتب شعره لكل الناس بكل الأزمان . وإن يكن أبو العلاء شاعراً عربياً فهو شاعرٌ عالميٌّ ايضاً واسمه وصيته

مشهوران في الغرب لذلك رغماً عن الصعوبات المشار اليها فباستطاعة المستشرق ان يكوّنَ نظرةً عنه إنْ لم تكن شاملةً فهي عامة على الأقل وباستطاعته ان يقدرَ عبقريّتهُ وحقه ومكانته بين الشعراء الذين كان شعرهم ورسالتهم الى كل العصور وكل الامم . والمستشرق لايزعجه جحدُ ابي العلاء لصحة النبوات والديانات عامةً لانه يعرف سوءَ حالة الحياة الدينية والخلقية في عصره . ومن يدرس شعرَ المعري لا غنىً له عن الشعور بهمومه وأحزانه اذا كان يريدُ ان يستفيدَ من فكرهِ العميق ، ويجب ان يتعمقَ هذا الشعورُ بالباحث حتى يصلَ الى شخصية الشاعر ونفسه : فيرى كمن لم يرضَ بدنياه ولم يجد عُذراً للتناسل ولا سلوى بديانات عصره . وليس على القارئ شرقياً كان اممستشرقاً الذي ليس له عطف على عبقري غارقٍ في بحر الظلمة والشك إلا ان يطوحَ باللزوميات فهي مُضرّةٌ له لانافعة . والعالمُ الذي يدرس هذا العبقريَّ بروح العطف يقوم قائلاً إنَّ هذا الرجلَ ليس من القرن الرابع للهجرة بل من الرابع عشر . يذكر ذلك العالمُ ان هذا الشاعرَ لم يَرَ ولم يقرأ كتب ادباء زمانه مثلَ أبي علي بن سينا والبيروني وبديع الزمان الهمذاني والثعالبي وابن حزم والباقلاني وآخرين . ولكن على هذا فما اكثر أدبهُ وما أعلمه فانه بكل حياته مااستغنى عن قارئٍ ولا فاته حفظُ ماسمع ؛ بينما لنا نحن في هذا الزمان كتب ومكاتبُ ودائراتُ معارف وقواميس . ولكن لاينبغي أن اطيل الكلامَ بعمى الشاعر لان زماننا كرم بكاتب (ويبقى الدهر ما كتبت يداه) تكلم من سجن أبي العلاء كلماتٍ تستحق إعجابنا واحترامنا .

اما أبو العلاء فإنَّ احوالَ عصره قدبغضته الحياةَ .سفكُ الدماءَ سَغبٌ رُعبٌ كانت حوله دائما . قال التغري بردي: «عمَّ الوباء والقحطُ بغداد والشام ومصر والدنيا وكان الناس يأكلون الميتة (١) ولكن بعد سنين قليلةٍ مات رجل وترك وصيةً على الف الف دينار غير المتاع والقماش والجوهر (٢) هذا مما كان سبباً لتشاؤم أبي العلاء ويمكن ان الزلازل التي هدمت ابنية الشام وقتلت سكانها أتمت تشاؤمه وقال :

لم يقدُر اللهُ تهذيباً لعالمنا ... فلا ترومنَّ للاقوام تهذيبا
ولا تصدق بما البرهان يُبطله ... فتستفيد من التصديق تكذيبا

(١) النجوم الزاهرة ٢٦٢١٩
(٢) » » ٢٦١٠٦

إنْ عذب اللهُ قوما باجترامهم فما يريد لأهل العدل تعذيبا

تُظهرُ هذه الابيات تمرداً على قدر الله او على الاقل نقدَ تصرُّفه تعالى في عالمه . فإن لم يقدر الله تهذيبا للعباد فلماذا ارسل انبياءَه ورسله (عليهم السلام) وإن لم يعذب قوما باجترامهم فيلزم ان يقال هلكت عاد وثمود بأسباب طبيعية وقد سلك المعري مسلك من نفى ان سببَ الألم هو الإثم والمعصية لان العادلَ يُعذب مع الظالم بلا فرق . ويكون هنا مُشكلة قديمة وجدت بأسفار البابليين اعني لماذا يعذبُ العادلُ في الدنيا ولماذا أفلحَ الظالم . وتكون هذه المشكلة موضوع كتاب أيوب باللغة العبرانية ويقول :

« انَّ الكاملَ والشريرَ هو يُفنيهما »

وكلاهما راما ان لم يولدا

وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من امه النفساء

وأيضاً

والحال ضاقت عن ضمها جسدي فكيف لي ان يضمه الشجب

ماا وسعَ الموتَ يستريح به الجسـ ـمُ المعنى ويخفتُ اللجبُ

وقال أيوب :

« لِمَ لم أمت من الرَحم عندما خرجتُ من البطن لِمَ لم اسلم الروح . لماذا اعانتني الركبُ ولِمَ الثديُ حتى أرضعَ لاني قد كنت الآن مُضطجعاً ساكنا . حينئذ نمتُ مستريحا . »

إنَّ روحَ المعري لم تكن روح مؤمنٍ بالنبوات : وروح النبي أيوب لم تكن روح مؤمنٍ بان الألمَ نتجَ عن الخطيئة ضرورةً . وبلغ كلاهما غاية واحدة وهي الله تعالى وتبارك . ولقد قال النبي أيوب بعد الرؤيا « بسمع الأذن قد سمعتُ عنك والآن رأتك عيني . لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد » .

وقال المعري : أزول وليس في الخلاق شك .

ولأختصر فان أسوأ القول الافراط إذ لايمكنني بحديث قصير ان أذكر الا مسائل قليلة من أدب المعري وهـذه المسائلُ تتضمن بكلمة واحدة كان المعري محدثاً . وكل عبقري يولد قبل زمانه وما كان المعري شاذاً . فيلوح انه كان شاعر المستقبل باعتبارنا تعليمه العقلي والاخلاقي والسياسي والديني .

العقل

مدح العقل وكرمه بقوله :

اذا تفكرت فكرا لايمازجه فسادُ عقلٍ صحيح هان ماصعبا

ويقول :

نهاني عقلي عن امور كثيرة وطبعي اليها بالغريزة جاذبي
ومما أدام الرزءَ تكذيبَ صادق على خبرةٍ منا وتصديق كاذب

وأيضاً :

ولا تطفئوا نور المليك فانه يُمتعُ كلٍ من حجيً بسراجِ

ومع ذلك ما كان المعري مصلحاً فقد منعه من ذلك عماهُ فزاد تشاؤمه :

واللب حاول ان يهذب أهله فاذا البريةُ مالها تهذيبُ
من رام إنقاءَ الغراب لكي يرى وضح الجناح أصابه تعذيب

الأخلاق

ان الأحوال الاجتماعية في عصره قد بغضت أبا العلاء في الدنيا ولكن لم تبغضه في الانسان بل بالعكس زيد رفقه به . اما نفسه فقد كان ألمه ضروريا من طبيعته ورجا مكافأة في الآخرة .

أأخشى عذابَ الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب

واما الناس عامةً فله نظران متناقضان في أمرهم اولاً أنه أصلح لهم أن لم يولدوا وثانياً أن السعادةَ في الدنيا ممكنةٌ لهم إن اصلحت أحوال الحياة وترتبتْ أخلاقهم على اصول العدل واللطف والحقيقة . فعذابُ أبي العلاء الضروريُ بغض اليه عذاب الناس اللا ضروريً وهجم على كل من أضر الناس على أي وجه من الوجوه. مثلاً هجم على المفتري والواشي والنمام والفتان الذين اثاروا عداوةً بين الناس بألسنتهم المسمومة .

لسان الفتى يدعى سناناً وتارةً حساماً وكم من لفظة ضربت عنقا

وقال ايضاً :

يقول لك انعم مصبحاً متوددُ اليك وخير منه أغلبُ أصبحُ

فيظهر من البيت التالي أنه لو كان للمعري استطاعة لكان مصلحاً فعالاً لا ناقداً محضاً .

لو كان لي امر يطاوع لم يعش ظهر الطريق يد الحياة منجم

فوصفه لهذه النسور من خاصية سخريته مع بغضه للخدعة والكذب .

سألت منجمها عن الطفل الذي ... في المهد كم هو عائش من دهره
فاجابها مائة ليأخذ درهماً ... وأتى الحمامُ وليدها في شهره

وسخر من التجار في الاسواق الذين ضايقوا الفقراء واعتذروا عن غلاء بضائعهم وقال :

يا تاجر المصر ما انصفت سائمةً ... كذبتها في حديث منك منسوق
إن تشك قطع طريقٍ بالفلاة فكم ... قطعت من قبلُ طرق الناس في السوق

السياسة

وما من شك ان أبا العلاء كان ديمقراطيا عصرياً وبيانُ ذلك بما قال في الملوك واولي الامر وهو أن يجلسوا على كراسيهم ليهديَ رعيتهم ويحق عليهم إصلاح الرعية فليسوا الا نوابهـــا . وليس من المستحيل ان هـذه الروحَ كانت احياءَ الديمقراطية القديمة العربية ولكن على كل حال تجسمت هذه الروح بصورةٍ حادثة في قوله :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... فعدوا مصالحها وهم اجراؤها

واما البيت التالي فلو كان كتب باللغة الانكليزية لقال القارىء هذا من شعر شاعرنا ملتون وتاريخه القرن السابع عشر .

وأرى ملوكاً لاتحوط رعيةً ... فعلامَ تُؤخذُ جزية ومكوسُ

أو

اذا ماتبينا الأمور تكشفت ... لنا وأميرُ القوم للقوم خادمُ

وقد تكلم كثيرٌ من الكتاب في حقوق الملك على رعيته وحقوق الرعية على ملكها ولا أعرف من يشارك المعري في هذه الجزأة . فمن الواضح انه إنْ يدفع القومُ اجرةً لملكهم فبمقدورهم ان يحرموه منها ويخلعوه . وهذه ديمقراطيةٌ محضةٌ ولكن أبا العلاء ما كان فوضوياً بمعنى انه كان عدوَّ الحكومة ذاتها فذكرَ الناس أن اولى الامر كانوا نافعين رغما عن معايبهم .

واخشَ الملوك وياسرها بطاعتها ... فالملك للارض مثل الماطرِ الساني
ان يظلموا فلهمْ نفعٌ يعاش به ... وكم حموكَ برجلٍ أو بفرسان

فللمعري نظرٌ سليم بالهيئة الاجتماعية وعلم الناسَ ان الهيئةَ الاجتماعيةَ يجب

عليها أن تكون جسما واحداً لانّ الجسمَ مركبٌ من أعضائه المختلفة وان بعضاً واجبٌ لبعض وإن لم يشعرْ بتعلقه او ملازمته المتبادلة والمشتركة وتراه يقول :

والناسُ بالناس من حضر وباديةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ
وكلُ عضوٍ لامرٍ ما يُمارسهُ لامشيَ للكفّ بل تمشي بك القدم

الدين

كان أبو العلاء مُحدثا في فكره. وفائدتهُ وخدمته للحياة الدينية هما بتشديده على التسامح والتعقل فكراً وعلى الإخلاص عملا . لذلك نظر الفرقَ بين الفرق والاختلافات بين الديانات نظرةَ عاقلٍ وانسانيّ وفي رأيه ان الاختلافات بين المذاهب المختلفة والفرق كالاشاعرة والمعتزلة والجبرية والمرجئة تدلّ على وجوب تردد العاقل في قبول اخبارها ، فليست الاختلافاتُ بين الديانات مهمةً حذاءَ الأصول الأساسية وهي الاعتقادُ بالله والعمل بالعدل والمعروف . ويظهر احياناً انه شكّ في حقيقة الديانات كلها .

حَنفِ الحنيفةُ والنصارى ما اهتدت ويهودُ حارتْ والمجوس مُضلله
اثنانِ اهل الارض ذو عقلٍ بلا دينٍ وآخرُ دينٌ لاعقل له

وقبل أن نذمهُ يجب علينا ذكرُ ماقال الامام الغزالي : الشكوك هي الموصلةُ الى الحق فمن لم يشك لم ينظر ومن لم يُنظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال . ومع ذلك مابقي المعري في عمى وضلال فقال بنفسه .

ازول وليس في الخلاق شكٌ فلا تبكوا عليَّ ولا تبكوا
خذوا سيري فهن لكم صلاح وصلوا في حياتكم وزكوا
ولا تُصغوا الى اخبار قومٍ يصدقُ مينها العقلُ الاركُ

ويظهر لي ان المعرّي كان بموضع كثيرين من المثقفين اليومَ بانه مدح دينهُ خاصةً وفضله على الاديان عامةً ومع ذلك اعتبر ان ليس في الدنيا دينٌ بقي على ماتركه نبيهُ . وكل الاديان نمتْ وتغيرت بتاثير الاخبار والعادات والنواميس وهي اثارت الحروبَ والعداوة : واما الانبياء فهم أنذروا الناسَ بها . لذلك المعري هاجم أخبار الأولين من جهتين (اولا) نفى صحيحها تأريخياً وعقلياً (وثانياً) قال بانها اسبابُ الحروب بين أممٍ يجب عليها احترامُ بعضها لدين البعض الاخر واما الاول فقال :

جاءت احاديثُ إن صحت فان لها شأناً ولكنَّ فيها ضعفَ إسناد
فشاور العقل واترك غيره هدراً فالعقل خيرُ مشيرٍ ضمه النادي

وأيضاً .

هل صحَّ قولٌ من الحاكي فنقبله ام كلُّ ذاك اباطيلٌ وأسمارُ
اما العقولُ فآلت أنه كذبٌ والعقلُ غرسٌ له بالصدق إثمار

واما الثاني فقال :

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً وأورثتنا أفانينَ العداواتِ

وايضاً

غدا اهلُ الشرائع في اختلافٍ تقض به المضاجعُ والمهودُ
فقد كذبت على عيسى النصارى كما كذبت على موسى اليهودُ
ولم يستحدثِ الأيامُ خلقاً ولا حالت من الزمنِ العهود

وما كان نظر المعري في الدين الصحيح ؟ وما كان أمله للمستقبل ؟ وبكلمة لقد كان رأيه الاعتقاد بالله تعالى هذا الاعتقادُ الذي يُظهر بالإنصاف والعدل والمعروف

الدينُ إنصافك الاقوام كلهمُ وأي دينٍ لابي الحقِّ إن وجبا

وما هذا الا معنى الامام الغزالي بقوله ومن ظن ان سعادةَ الاخرة تُنال بمجرد قوله لااله الا الله دون تحقيقه بالمعاملة كان كمن ظن ان الطبخ يحلو بقوله طرحتُ السكرَ فيه دون أن يطرحه . فسخر المعري المتمسك بظاهر الدين دون حقيقته وقال :

توهمت يامغرور أنك دين علىَّ يمين الله مالك دين
تسيرُ الى البيت الحرام تنسكاً ويشكوك جارٌ بائسٌ وخدينُ

وأخيراً تسمعُ اشتياقه لهيئةٍ اجتماعيةٍ صالحةٍ مطهرةٍ من الظلم والعداوة .

متى يقوم امامٌ يستقيدُ لنا فتعرفَ العدلَ أجبالٌ وغيطانُ

وأيضاً .

مرآةُ عقلك إن رأيت بها سوى مافي حجاك أرته وهو قبيح
أسنى فعالك ماأردتَ بفعله رشداً وخيرُ كلامك التسبيحُ

فلتكن كلمةُ التسبيح آخر كلمةٍ أقولها والسلام .

الفريد غلبوم